The role of titles in strengthening the legitimacy of the Mamluk authority (Al-Zahir Baybars inscriptions in the buildings of the Levant as a model)

Dr. Ghada Hassan •

(Received 16 / 4 / 2022. Accepted 5 / 7 / 2022)

□ ABSTRACT □

Archaeological inscriptions on religious and civil buildings are an important source of Islamic history. They are authentic documents whose value is not easy to challenge. They played a key role in the policy of the Mamluk Sultan Al-Zahir Baybars and the Mamluk sultans who came after him in establishing the legitimacy of their rule in Egypt and the Levant, and confirming their leadership over other regions in the Islamic Arab Mashreq. This study aims to shed light on the titles engraved on Baibars in some religious and civil buildings in the Levant, and its role in presenting the Sultan as the ideal Muslim ruler and fighter for Islam. The research also shows the role of nicknames in evoking the foundations on which Baibars built his image and legitimacy in exercising power.

Keywords: titles, Baybars, Mamluks, religious and civil buildings, the Levant.

•**Assistant professor of the department of history, Faculty of Arts, University of Tishreen boudihassan@yahoo.fr**

دور الألقاب في تدعيم شرعية حكم المماليك
(نقوش الظاهر بيبرس في بعض عمائر الشام إنموذجاً)

د. غادة حسن •

(تاريخ الإيداع 16 / 4 / 2022. قبل للنشر في 5 / 7 / 2022)

□ ملخّص □

تعد النقوش الأثرية على العمائر الدينية والمدنية مصدراً هاماً من مصادر التاريخ الإسلامي، فهي وثائق صحيحة ليس من السهل الطعن بقيمتها، وقد مارست النقوش دوراً أساسياً في سياسة السلطان المملوكي الظاهر بيبرس ومن جاء بعده من السلاطين المماليك في تثبيت شرعية حكمهم في مصر والشام، وتأكيد زعامتهم على مناطق أخرى في المشرق العربي الإسلامي. تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على الألقاب التي نقشت لبيبرس في بعض العمائر الدينية والمدنية في بلاد الشام، ودورها في تقديم السلطان على إنه الحاكم المسلم المثالي، والمقاتل من أجل الإسلام. كما يبين البحث دور الألقاب في استحضار الأسس التي بنى عليها بيبرس صورته وشرعيته في ممارسة السلطة.

الكلمات المفتاحية: الألقاب، بيبرس، المماليك، العمائر الدينية والمدنية، بلاد الشام.

• أستاذ مساعد ، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

مقدمة

يعدّ عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (658-676هـ/ 1260-1277م) فترة مهمة في تاريخ المشرق العربي الإسلامي عامة وبلاد الشام خاصة، وذلك لإن هذه المنطقة كانت تتعرض في تلك الأثناء لخطرين خارجين عملا منفردين ومعاً على تقويض دعائم الدولة العربية الإسلامية، وهما: الفرنج الذين لا يزالون يملكون مدناً وقلاعاً منتشرة على طول الساحل الشامي، ومغول فارس الإيلخانيين[1] الذين دمروا الخلافة العباسية في بغداد، واجتاحوا بلاد الشام واستولوا مؤقتاً على حلب ودمشق. بعد الدور الكبير الذي شغله بيبرس في هزيمة الملك الفرنسي لويس التاسع في معركة المنصورة عام 648هـ/1250م، عاد ليبرز من جديد عندما شارك إلى جانب السلطان قطز[2] في الانتصار الشهير لقوات المماليك على المغول في عين جالوت سنة 25 رمضان 658هـ/3 أيلول 1260م[3]. يمثل هذا الانتصار الذي بداية فصل جديد في حياة بيبرس السياسية، وقد تزامن وصول بيبرس إلى السلطة مع ظهور ايديولوجية جديدة عرفتها دار الإسلام، إذ ادعى خانات المغول إن حكمهم قد قام على أساس تفويض من "السماء الأبدية (تنكري)"، وهو الإله المستقر في السماء[4]. وبناءً على هذا فإن جميع أمم الأرض مدعوة لأن تكون في سلام وانسجام مع المغول، وبعبارة أخرى دعوتهم إلى خضوع كلي وغير مشروط[5]، ومن يرفض الخضوع للسلطة المغولية يعدّ متمرداً، ليس فقط على حكام المغول، ولكن أيضاً على "السماء الأبدية"[6]. في عام 667هـ/1269م وصلت رسالة من خان المغول أباقا خان (663-680هـ/1265-1282م) إلى الظاهر بيبرس مضمونها:" إن الملك "أباقا خان" ابن هولاكو قد ملك جميع بلاد الشرق ومن خالفه قتل. وأنت (يقصد بيبرس) لو صعدت إلى السماء أو غصت في الأرض ما تخلصت منا،

---

[1] تأسست دولة الإيلخانيين على يد هولاكو بعد أن اختار مدينة مراغة في أذربيجان عاصمة لدولته التي شملت فارس وكرمان وخرسان والعراق وآسيا الصغرى، وانهارت سنة 756هـ/1355م بسبب الصراع بين أمراء المغول وقادة الجيش. ولقب ايلخان يعني الملك التابع أي حاكم الولايات في الدولة، ويكون تابعاً للخان الأعظم الذي يحكم الدولة في العاصمة قراقورم. للمزيد انظر صبحي، عبد المنعم، المغول والمماليك السياسة والصراع، دار العربي للنشر، الإسكندرية، ط1، 2000، ص 17.

[2] قطز: هو محمود بن ممدود، وتشير الروايات إنه كان مملوكاً لشخص يدعى ابن الزعيم في دمشق، وفي رواية أخرى تقول إنه ابن أخت خوارزم شاه، انتهى به الحال بعد قضاء المغول على الخوارزمية إلى الرق، ليصبح أحد مماليك نجم الدين أيوب، وكان من أخص مماليك السلطان المعز أيبك وقادته. للمزيد انظر الصفدي خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، ج 24، تح. أحمد الأرناؤوط، زكي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000، ص 189.

[3] لمعرفة المزيد عن دور بيبرس في معركتي المنصورة وعين جالوت انظر توراو، بيتر، الظاهر بيبرس، تر. محمد جديد، تقديم أحمد حطيط، قدمس للنشر والتوزيع، 2001، ص 45-54، 83-87.

[4] اعتنق المغول الديانة الشامانية، وهي ديانة قائمة على عبادة عوامل الطبيعة كالشمس والقمر والنار والرعد والبرق. واعترفوا إلى جانب هذه المعبودات، بوجود إله واحد، خالق الأشياء وهو يتربع فوق السماء الزرقاء، فعبدوه ودعوه باسم تنكري. وعرف خانات المغول عامة بأنهم أبناء تنكر الذي مثلهم على الأرض على أساس اعتقادهم بأنهم "الكوت" وهي الروح العظيمة التي يمنحها تنكري لهؤلاء الحكام. مرجونة، إبراهيم محمد علي، المغول في العالم الإسلامي دراسة سياسية وحضارية (656-735هـ/1258-1335م)، دار التعليم الجامعي، ط1، الإسكندرية، 2021، ص 187-196.طقوش (محمد سهيل)، تاريخ المغول العظام والإيلخانيين، دار النفائس، بيروت، ط1، 2007، ص 40.

[5] شبولر (برتولد)، العالم الإسلامي في العصر المغولي، تر. خالد أسعد عيسى، مر. سهيل زكار، دار إحسان، دمشق، 1982، ص 26.

[6] AMITAI-PREISS, R., "Mongol Imprial Ideologie and the Ilkhanid War against the Mamluks", *in Mongol Empire and its Legacy*, ed. Reuven Amitai Preiss et David Morgen, Leyde, Brill, 1999, p. 62.

فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً، وأنت مملوك قد أبعت في سيواس (أي تم بيعك كعبد في سيواس) فكيف تشاقق ملوك الأرض وأولاد ملوكها"[7]. هنا يمكن القول إن أباقا، المفوض من قبل السماء الأبدية (الإله تنكري)، والحاكم ذو النسب والدم الإمبراطوري، لا يستطيع إلا التعبير عن احتقاره وازدراءه لمتمرد (بيبرس) ليس له أسلاف. ومن المعروف أن بيبرس الذي تم بيعه كعبد في أسواق الشام قادماً من بلاد القبجاق[8]، لم يكن يملك شيئاً يمكن من خلاله مواجهة هذا "النسب المغولي"، ففي بداية مسيرته كان بيبرس مملوكاً لأحد أمراء الملك الصالح نجم الدين أيوب[9] الذي اشتراه فيما بعد، وأدخله في صفوف مماليكه الخاصة من المماليك البحرية. علاوة على ذلك، وصل بيبرس إلى السلطة بعد ارتكابه أو بالأحرى مشاركته بجريمتي قتل: الأولى كانت قتل المعظم توران شاه، الخليفة الشرعي لسيده الصالح أيوب عام 648 هـ/1250م، الأمر الذي أنهى حكم الأسرة الأيوبية في مصر، ثم السلطان المملوكي المظفر قطز الذي اغتيل بمؤامرة من كبار الأمراء المماليك من بينهم بيبرس في ذو القعدة 658هـ/1260م[10]. لم يكن أمام بيبرس من خيار– نظراً لوصمة نقص النسب وعمليتي الاغتيال المزدوج للحاكمين–سوى تقديم نفسه على أنه حامي العقيدة الحقيقية في مواجهة الفرنج وسلالة المغول في فارس الذين كان يُنظر إليهم على أنهم سلالة وثنية مستبدة وطاغية. لقد بنى الظاهر شرعيته على الأعمال العسكرية والدينية التي تردد صداها في ألقابه التشريفية المنحوتة على العمائر الدينية والمدنية.

تشكل النقوش الضخمة مادة غنية بشكل خاص لدراسة الآليات التي طبقها الحكام المسلمين لتشكيل وتثبيت شرعيتهم، ويرى بعض الباحثين أن اختيار الألقاب لا تمليه القواعد الدبلوماسية الدقيقة فقط، بل هي تقدم أيضاً أدلة تاريخية قيمة بمعنى أنها إذا لم تكرس دائماً موقفاً واقعياً، فإنها على الأقل تبين أو تظهر الادعاءات السياسية لشاغلي المناصب[11]. تم إعداد مصطلحات النقوش ودراستها من قبل المسؤولين في ديوان الإنشاء، ومن قبل علماء الدين الذين وضعوا بالتالي أسس شرعية السلطة، خاصة في أوقات الأزمات، كما هو الحال في عهد الظاهر بيبرس. تتناول النقوش الموجودة على العمائر الضخمة الصفات الشخصية، والفضائل الدينية والحربية، ووظائف وإنجازات الحاكم، ويتكون البروتوكول العادي للأمير من جزأين متميزين: يبدأ الجزء الأول بعدد من الألقاب البسيطة: الملك العادل ..العالم...المنصور ..الخ، أما الثاني فيتألف من ألقاب مركبة تتكون من اسم واحد أو أكثر كسلطان الإسلام والمسلمين... وكان الظاهر بيبرس قد ترك العديد من النقوش في بلاد الشام على العمائر التي أمر ببنائها أو

---

[7] اليونيني، موسى بن محمد، ذيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي، تح. عباس هاني الجراح، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 41، ابن تغري بردي، يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة، ص144–145.

[8] بلاد القبجاق أو القبشاق أو القفجاق: إقليم يقع في الجنوب الشرقي من روسيا الحالية ويشمل حوض الفولجا والأراضي الواقعة حول بحر الخزر وشمال البحر الأسود. كان سكانه من أصل تركي، اشتهروا بالبداوة والفروسية، وتعد بلادهم مركزاً مهماً لتجارة الرقيق الأبيض من الترك. انظر القلقشندي، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، ج4، ج 458، ص 356،

[9] الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل: ولد بالقاهرة عام 603هـ/1206م، وتولى حكم مصر عام 636هـ/1238 م بعد عزل أخيه العادل الثاني، تمكن من استرجاع القدس من يد الفرنجة عام 642هـ/1244م. شهد مجيء الحملة الفرنجية السابعة لدمياط وتوفي في المعسكر الإسلامي في فارسكور. للمزيد انظر بيبرس المنصوري، ركن الدين بن عبد الله، مختار الأخبار، تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 1993، ص 8، القرماني، أحمد بن يوسف، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج.2، تح. أحمد حطيط وفهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1992، ص 261.

[10] توراو، ص 28–29.

[11] BERCHEM, M. V., "Titres califiens d'Occident", *Journal asiatique*, 1907, p. 256. (pp. 245–335)

تجديدها[12]، لكن هذه النقوش لا تقدم جميعها الأهمية نفسها فبعضها قصير جداً، والبعض الآخر غير مكتمل أو تم محوه. وقد تم اختيار بعض هذه النقوش لدراستها وتحليلها لأهميتها بالنسبة لمحتواها والآثار التي تظهر عليها ووضعها في السياق التاريخي الذي كُلفت فيه. ويمكن القول إن المعلومات الواردة فيها تستحضر الأسس التي بنى عليها بيبرس شرعيته في ممارسة السلطة، كما يني بها صورته.

أهداف البحث وأهميته

يهدف هذا البحث إلى دراسة بعض الألقاب التي نقشت على العمائر الدينية والمدنية في بلاد الشام والتي خصصت للظاهر بيبرس الذي يعدّ المؤسس الحقيقي للدولة المملوكية في مصر والشام. كما تهدف هذه الدراسة إلى تبيان العوامل والأسباب التي دفعت بيبرس إلى استخدامها وكان من أهمها إضفاء الشرعية على حكمه وذلك في مواجهة للأخطار الخارجية والداخلية التي هددت وجود دولته وكيانها في المنطقة. تكمن أهمية البحث في تناول موضوع لم تتطرق له الدراسات الحديثة على الرغم من أهميته، فهو يعطي تصوراً عن الأساليب والأدوات غير المادية التي استخدمها المماليك لتشريع سلطتهم في منطقة لا يمتون لها بأي صلة.

منهجية البحث

اعتمد البحث المنهج التاريخي الذي يقوم على جمع المادة التاريخية من المصادر والمراجع المختصة، ودراستها وتحليلها واستقراء ما أمكن من المعلومات التي تخدم موضوع الدراسة، ومن ثم صياغتها في قالب تاريخي، وتقديمها بشكل علمي مدروس.

أولا–الظاهر بيبرس الحاكم المسلم المثالي

إن الفضائل والصفات التي خصصت للظاهر بيبرس في النقوش مستوحاة من نموذج الحاكم المسلم المثالي كما هو موصوف في الكتب المصنفة في آداب الملوك أو الآداب السلطانية. فقد وصف (أي بيبرس) بأنه "العادل والعالم"[13]، وهاتان الصفتان –العدالة والمعرفة–أدتا دوراً مهماً في نظرية الحكم والسلطة في العصور الإسلامية. يشير مصطلح العدل إلى العدالة الإلهية أي إلى حكم الله، وهناك كلمتان يتم استخدامهما للإشارة إلى أن الله عادل هما: العادل والعدل[14]. وتستخدم كلمة عادل في لغة الفقه كصفة لتحديد الشخص ذي المكانة الأخلاقية الجيدة، مع المعنى الديني الأساسي المرتبط به في الإسلام. وقد وصف الماوردي، مؤلف أحد أشهر الكتب التي تعالج الفقه السياسي بمصطلح العصر الحديث (أي معرفة كل ما يتعلق بالإمامة والإمارة والقضاء والحسبة)، الشروط والآداب التي يجب أن يتحلى

[12] يذكر ابن تغري بردي عن عمائر الظاهر بيبرس ومنشأته: "بني في أيامه بالديار المصرية (المملوكية) ما لم يبن في أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين) من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات". للمزيد انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص 196.

[13] نقش هذان اللقبان في جميع العمائر التي قام بيبرس ببنائها أو تجديدها. للمزيد انظر مشعل، عمر موسى، من تاريخ الحركة العمرانية بفلسطين في العهد المملوكي، عمائر الظاهر بيبرس: الخلفيات والأبعاد–خان الظاهر بالقدس، حوليات القدس، العدد 12، 2011، ص 63–85.

[14] للمزيد حول موضوع العدالة الإلهية انظر الربيعي، حسين صالح حسن، دور الأنبياء والرسل في إثبات العدالة الإلهية في التاريخ الإسلامي، الجامعة المستنصرية، بغداد، 2017، ص 1–21.

الشخص بها ليصبح خليفة تحت عنوان "شروط أهل الإمامة". وكانت أولى هذه الشروط العدالة وثانيها العلم، وقد عرّف العدالة "كحالة من الكمال الأخلاقي والديني مصدرها العلم الضروري من أجل تفسير شريعة الإسلام وتنفيذها"[15].

كما إن لقب "ظل الله على الأرض"[16] الذي وصف به بيبرس في نص إنشاء من سنة 675هـ/1274م في برج الظاهر في قلعة الكرك[17]، يشكل أيضا جزءاً من صفات الحاكم المثالي. في النظرية السياسية الإسلامية للحكم، إن لقب "ظل الله على الأرض" من حيث المبدأ مخصص للخليفة فقط، ويؤكد هذا اللقب حقيقة أن الله –في اختيار الخليفة–هو المصدر الوحيد للسلطة، وهي نظرية سبق أن طورها قاضي بغداد أبو يوسف في كتابه "الخراج"[18]. لكن هذه النظرية تغيرت بدءاً من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، إذ فقد الخليفة سلطته الزمنية تماماً، وتم تجاهله فعلياً وأصبح السلطان هو "ظل الله على الأرض"، وهذا يناسب ادعاء بيبرس للسيادة على العالم الإسلامي مفوضاً من الخليفة العباسي. كما وصف بيبرس في قلعة الكرك أيضًا بأنه "مغيث الخالق"، ويمكن ربط هذا اللقب بالآية القرآنية: "إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم"[19]، ومصطلح المغيث هو من أسماء الله الحسنى، واستناداً للمفسرين فإن الله يدرك عباده في الشدائد إذا دعوه[20]. ويدل هذا على أن رعايا الحاكم الذي يحمل هذا اللقب يستطيعون وضع أنفسهم تحت رعايته وحكمه بطريقة مشابهة للمؤمنين الذين يلجؤون إلى الله تعالى. في هذا اللقب نجد صورة للحاكم الراعي لشعبه كما تظهر في الكتب المصنفة في آداب الملوك.

منح السلطان المملوكي أيضاً بعض الألقاب التي ورثها من الأمير نور الدين محمود بن زنكي (511–569هـ/1118–1174م)[21]، فهو "محي العدل في العالمين" و"ناصر الحق"، وهذا اللقب الأخير هو اختصار للقب كامل من ألقاب نور الدين محمود: "ناصر الحق بالبراهين"، وكان قد حصل عليه بعد قيامه بإصلاح القضاء عن

---

[15] الماوردي، علي بن محمد، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتاب العربي، 1990، ص 31.

[16] استخدم هذا اللقب لدى سلاجقة الروم وسلاطينهم الذين كانوا يلقبون "ظل الله في العالم"، "ظل الله في الأرضين" و"ظل الله في الخافقين"، وربما ورث بيبرس هذا اللقب منهم. انظر الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية، القاهرة، 1989، ص 284.

[17] الكرك: وهي مدينة محدثة البناء كانت ديراً يتديره رهبان، ثم كثروا فكبروا بناءه وأوى إليهم من يجاورهم من النصارى، فقامت لهم به أسواق، وأوت إليه الفرنج ...ثم بنوا به قلعة حصينة من أجل المعاقل وأحسنها، وبقي بيد الفرنج حتى فتحه صلاح الدين الأيوبي. للمزيد انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 161–162.

[18] أبو يوسف القاضي فقيه العراقين يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي (ت. 182هـ/798م): من أبرز تلاميذ أبي حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفي. يعد كتابه الخراج من أعظم كتب الفقه الإسلامي، وكان قد أهداه إلى الخليفة هارون الرشيد خامس خلفاء الدولة العباسية في بغداد وأشهرهم. للمزيد انظر أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، الخراج، دار الأمل، 2018، ص 5–12.

[19] القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية 9.

[20] انظر ابن كثير، اسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، مكتبة دار الاسلام، دمشق، ج2، 1948، ص 178.

[21] نور الدين محمود (541–569هـ/1146–1174م): هو ابن عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الزنكية حصل بعد وفاة والده على أتابكية حلب التي قضت على أتابكية دمشق، وتمكن بذلك من توحيد حلب ودمشق، ثم بعد ذلك تمكن من ضم مصر إلى دولته. للمزيد انظر سوزي، حمود، الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك وصراعهم حول السلطة في المشرق العربي (362–923هـ/973–1517م)، مر. عصام شبارو، دار النهضة العربية، بيروت، 2010، ص 41–48.

طريق إنشاء دار العدل، وربما أراد نور الدين خلال هذا الإصلاح جعل العدالة مستقلة تماماً عن المسجد[22]، ويبدو أنه أراد قبل كل شيء أن يبرز –في عيون الجميع– ممارسة العدالة كأساس لشرعية حكم الأمير.

تتطابق صورة بيبرس التي تنبثق من كل هذه الألقاب مع الصورة التي رسمها كاتب سيرته الذاتية ابن عبد الظاهر في "الروض الزاهر"[23]. في هذا الكتاب يوصف بيبرس –على غرار ما وصف به نور الدين– بأنه حاكم عادل يحترم الشريعة الإسلامية[24]. وتجدر الإشارة إلى أن معظم هذه السيرة كتبت في حياة بيبرس وبناءً على طلبه حتى أن بيبرس نفسه فيما بعد، ساعد المؤلف فأملى عليه معلومات عن حياته الأولى[25]. لذلك يمكن القول إن هذا الكتاب هو عبارة عن دعاية (برويباغندا) هدف المؤلف من خلاله، مثل النقوش الأثرية، إلى تناقل صورة لبيبرس على أنه الحاكم المسلم المثالي.

يحظى بيبرس أيضاً في جميع النقوش الخاصة به بنعمٍ إلهية فهو" المؤيد " الذي صيغته المطورة هي "المؤيد من السماء" أو "المؤيد بنصر الله"؛ وهو "المنصور"، وهو اختصار للقب "المنصور من السماء"، أو "المنصور بفضل الله"[26]؛ وأخيراً هو المظفر المختصر من "المظفر على أعداء الله". كما خصص لبيبرس صفات تسلط الضوء على شخصيته المحاربة فهو "المجاهد" المختصر من "المجاهد في سبيل الله"؛ وهو "المرابط" الذي يترافق دائماً مع لقب "المجاهد". كما وصف على إنه "المثاغر"، وهو تقريباً مرادف للقب "المرابط". ويتبين من هذه الصفات أنها تسلط الضوء على الفضائل الحربية لحاملها فالجهاد والإقامة في الرباط والثغور (المناطق الحدودية) هما إجراءان موصى بهما لأي مسلم صالح[27]، وأقدم نقش ظهر فيه لقب "المثاغر" هو نص إنشاء بتاريخ 442 هـ/ 1050–1051 م على جسر أمر ببنائه الخليفة الفاطمي المستنصر بالله[28] في دمشق، ثم استخدمه نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي[29]، ثم المماليك[30].

وهكذا يمكن القول إن هذه الألقاب المطابقة لما جاء في كتب آداب الملوك، تجعل من أي حاكم مسلم صالح، ولكن مع ذلك هي لا تضفي طابعاً شخصياً على بيبرس مثل العديد من الألقاب المركبة الموجودة في نقوشه. إن تحليل الألقاب

---

[22] ELISSEEF, N., Nur al-Din. Un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades (511-559h-1118-1174), Institut francais de Damas, Damas, 1967, vol. III, p. 907.

[23] عمل ابن عبد الظاهر في ديوان الإنشاء المملوكي، وعاصر خمسة سلاطين مماليك. للمزيد حول حياة ابن عبد الظاهر، وكتابه انظر المقدمة في ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح. عبد العزيز خويطر، الرياض، ط1، 1976، ص 9-38.

[24] HOLT, P., "Three Biographies of al-Zahir Baybars", in *Medieval Historical Writing in the Christian and Islamic Worlds*, Londres, School of Oriental and African Studies, 1982, p. 20.

[25] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 21.

[26] Nikita, Nur al-Din, p. 173.

[27] المثاغر أي القائم بأمر الثغور، وهي البلاد التي على الحدود بين الدولة العربية الإسلامية وما جاورها من الدول. للمزيد انظر الباشا، الألقاب، ص 449-450.

[28] الخليفة المستنصر بالله: هو الخليفة الفاطمي الثامن امتد حكمه ستين عاماً (427-487هـ/1036-1094م) شهدت فيها الخلافة الفاطمية أحداثاً جساماً. للمزيد انظر سيد، أحمد فؤاد، الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1992، ص 125-153.

[29] صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي: ولد لأسرة كردية من بلدة دوين على مقربة من أذربيجان. تمكن من تأسيس الدولة الأيوبية في مصر بعد القضاء على الخلافة الفاطمية في القاهرة عام 567هـ/1171م. للمزيد انظر القرماني، أخبار الدول، ج2، ص 254.

[30] الباشا، الألقاب، ص 462.

المركبة لبيبرس في مواجهة معطيات المصادر التاريخية تشهد على الوسائل التي استخدمها السلطان المملوكي لتشكيل شرعية لسلطته التي يبدو أنها مبنية بشكل واضح على العقيدة الإسلامية وتعاليمها.

ثانياً–الظاهر بيبرس حامي الخلافة والمسلمين

تحمل جميع نقوش الظاهر بيبرس في عمائر بلاد الشام باستثناء جامع قارة[31]، إشارة للعلاقة بين الخليفة والسلطان. أراد الظاهر أن يعلن لكل المسلمين والعالم الإسلامي بأنه محي الخلافة المدمرة من قبل الكفار. والواقع إن العمل الأول لبيبرس بعد فترة قصيرة من استيلائه على السلطة كان إعلان الخلافة العباسية في القاهرة حيث استقبل فرداً من الأسرة العباسية هو أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي[32] الذي تمكن من النجاة من مذبحة بغداد عام 656هـ/1258م. وكان بيبرس قد عقد مجلساً لإثبات صحة نسب الخليفة برئاسة قاضي قضاة القاهرة، وبويع أحمد بن الظاهر بالخلافة باسم المستنصر بالله في رجب 659هـ/ حزيران 1260م[33]. وهكذا تم إحياء منصب الخلافة بعد أن بقي شاغراً ثلاث سنين ونصف منذ قتل الخليفة في بغداد في صفر 656هـ/1258م. بعد ذلك بقليل أرسل بيبرس الخليفة الجديد على رأس جيش صغير لقتال المغول وطردهم من بغداد، مركز الخلافة العباسية، ولكن ما أن عبر نهر الفرات حتى هاجمته فصيلة من القوات المغولية، فأبيد جيشه إبادة كاملة تقريباً، وقتل هو أيضاً في محرم 660هـ/ تشرين الثاني 1261م[34].

ظهر لقب "قسيم أمير المؤمنين" على قلعة دمشق منذ عام 659هـ/1260–1261م، وكلمة قسيم تعني الشريك، ويشير هذا اللقب بشكل عام إلى أن حامله يمتلك جزءاً من السلطة الحاكمة، وأن الخليفة يعترف له بالمساواة معه في السلطة. عندما بدأت السلطة السلجوقية[35] بالانهيار في القرن الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين اعتمد الخليفة العباسي–للحفاظ على زعامة العالم الإسلامي –على أسر محلية حاكمة كالزنكيين[36]، ومنح أمراءهم لقب "قسيم الدولة"[37]، وهو لقب نطاقه السياسي أقل من نطاق التقاسم المشترك للسلطة. كما إن لقب "مُحي الخلافة المعظمة" الذي نجده في قلعة الكرك فقط، يرتبط أيضًا بحادثة استعادة الخلافة على يد الظاهر بيبرس. ترافقت هذه الدعاية حول الخلافة بأفعال يظهر فيها الخليفة كأداة في يد بيبرس إذ تتحدث المصادر العربية الإسلامية عن وصول

---

[31] قارة: اسم قرية كبيرة قبلي حمص، بينها وبين دمشق على منتصف الطريق، وأهلها كلهم نصارى. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 295.

[32] السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، دار الفكر، بيروت، ط1، 2001، ص 439.

[33] ابن واصل، جمال الدين محمد، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح. عمر عبد السلام التدمري، ج6، المكتبة العصرية، بيروت، 2006، ص 312–313، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 100–101، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص 143.

[34] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 99، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 439.

[35] السلاجقة: مجموعة من قبائل الترك عرفت باسم الغز، وتنسب إلى سلجوق بن دقاق. كانوا يقطنون الربع الشمالي المعمور في تركستان، ولأسباب اقتصادية غادر هؤلاء موطنهم إلى بلاد ما وراء النهر، واستطاعوا أن يحققوا انتصاراً هاماً على السامانيين والغزنويين، ثم تمكن زعيمهم طغرلبك من دخول بغداد سنة 447هـ/1055م. للمزيد انظر أبو النصر، محمد عبد العظيم، السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات، القاهرة، مصر، ط1، 2001، ص 52.

[36] أسس الزنكيون بقيادة عماد الدين زنكي الدولة الزنكية في الموصل وحلب، وبلغت ذروتها مع ابنه نور الدين محمود الذي عمل على توحيد مصر وبلاد الشام لمواجهة الفرنجة. وكان من أهم الأحداث في عهدهما استرجاع مملكة الرها من يد الفرنج عام 539هـ/1144م. للمزيد انظر سوزي، الفاطميون والزنكيون، ص 39–48.

[37] الباشا، الألقاب، ص 88–89.

وفد من المغول المسلمين قادمين من جهة بركة خان، الحاكم المغولي لبلاد القبجاق[38] الذي اعتنق الإسلام، إلى القاهرة في 24 ذي الحجة 660هـ/9 تشرين الثاني 1262م. وكان هناك حديث عن تحالف بين بيبرس وبركة خان ضد عدوهم المشترك، مغول فارس. فانتهز بيبرس الفرصة لينصب بعد أسبوع أي في 2 محرم661هـ/16 تشرين الثاني 1262م، أبو العباس أحمد خليفة جديد باسم الحاكم بأمر الله (660-701 هـ/ 1261-1302م)، وذلك بحضور ومشاركة سفراء المغول. وكما كان الحال مع الخليفة المستنصر بالله، تحقق رجال الدين والعلماء من نسب الخليفة المستقبلي الذي سرعان ما قام برد الجميل للظاهر بيبرس فقلده أمور السلطنة في "الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً"، وأوكل إليه "أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضاً". ودعاه لأداء فريضة الحج، وسماه شريكه في دعم الدين الحنيف "قسيم في القيام بالحق"[39]. ولكن بمجرد النطق بالبيعة سارع بيبرس إلى تقييد ظهور الخليفة على الملأ، وحرمه من كل سلطة، وحبسه في قلعة القاهرة. بعد ذلك، أرسل بيبرس عبر الوفد المغولي رسالة إلى بركة خان وأرفق معها نسخة من شجرة نسب الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله. وفي محرم 661 هـ/ 29 تشرين الثاني-كانون الأول 1262م غادرت السفارة المغولية القاهرة باتجاه بلادها. وهكذا قدّم بيبرس نفسه إلى خان مغول القبيلة الذهبية الذي اعتنق الإسلام حديثاً كزعيم للعالم الإسلامي.

كما إن اللقب المخصص لبيبرس "الآمر ببيعة الخليفتين" هام للغاية من حيث الطريقة التي يضع بها بيبرس سلطته بالنسبة إلى سلطة الخليفة. وكان أول ظهور لهذا اللقب في جامع بيبرس الكبير في القاهرة، الذي بني بعد الاستيلاء على صفد في 15 شوال 664هـ/20 تموز 1266م، بنقش مؤرخ في 14 ربيع الأول 665هـ/12 كانون الثاني 1267م. ويمكن القول إن اختيار المكان (أي القاهرة) والنصب (جامع بيبرس الكبير) له دلالة واضحة فهما مسؤولان عن الرمزية التي يمثلها هذا اللقب للشخص الذي يحمله. كان بيبرس الشخص الأول والوحيد الذي استخدم هذا اللقب الذي جعل من كلا الخليفتين مديناً له. لقد كرم بيبرس نفسه من خلال التعرف على خليفتين يملكان شرف النسب الذي كان ينقصه. وهكذا فإن الهدف من هذا اللقب إضفاء الشرعية الدينية على سلطة بيبرس، كما يعبر أيضاً عن سيادة السلطان في شؤون السلطة السياسية. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه قبل سقوط الخلافة العباسية في بغداد، كان السلطان يلقب "رضي الخلافة"، وهو لقب يؤكد ويظهر التعاون الوثيق بين السلطتين.

في السياق نفسه، استخدم بيبرس لقب "وارث الملوك" الذي كان شائعاً لدى سلاجقة الروم[40]، والوارث هو اسم من أسماء الله عزّ وجل الأكثر استعمالاً. هذا اللقب له مصدر في القرآن الكريم إذ ورد في العديد من السور: الله هو "خير

---

[38] بركة خان بن جوشي بن جنكيز خان حكم بين عامي 654-665هـ/1257-1266م، وهو رابع ملوك دولة مغول بلاد القبجاق والذين يعرفون بمغول البلاد الشمالية، وعاصمنهم مدينة سراي. للمزيد انظر المحميد، علي بن صالح، نفوذ المغول في آسيا الصغرى، الدرعية، الرياض، العدد 21-22، 2003، ص 192. كما أطلق على هذه الدولة اسم القبيلة الذهبية نسبة إلى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبي، وقد امتدت منازلها في شرق وغرب بلاد القبجاق. انظر لاين (جورج)، عصر المغول، تر. تغريد الغضبان، مر. سامر أبو هواش، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، ط1، 2012، ص 39.

[39] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 102-107، المقريزي، السلوك، ج1، ص 453-457، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص 99-103.

[40] سلاجقة الروم: الفرع السلجوقي الذي أقام ملكه في آسيا الصغرى. جاوروا الدولة البيزنطية، وكان أول حكامهم سليمان بن قتلمش في عام 469هـ/1077م الذي وسع رقعة منطقته في آسيا الصغرى من البحر الأسود حتى شواطئ البحر المتوسط جنوباً، وأشهر مدنهم العاصمة نيقيا، وسيواس. للمزيد انظر تايلور (تامرا)، السلاجقة وتاريخهم وحضارتهم، تر. لطفي الخوري، بغداد، مطبعة الإرشاد، 1968، ص 17-19.

الوارثين"[41] أي إن الله يبقى بعد فناء الكل ويغني من سواه فيرجع ما كان ملك العباد إليه وحده لا شريك له، هو "وارث السموات والأرض"، أي إنه يرث الأرض ومن عليها، ويمكن القول إن استخدام بيبرس لهذا اللقب يوضح ادعاءاته بشأن تقديم نفسه كوارث للخلافة العباسية. لقد تلقى بيبرس تفويض الحكم من يد الخليفة العباسي في القاهرة، وقد نقش هذا اللقب الذي يحمل بعداً رمزياً وسياسياً على ثلاث مواقع دينية: جامع قارة وضريحا خالد بن الوليد في حمص والنبي موسى، بالإضافة إلى قلعة دمشق.

كما لقب بيبرس في كتاباته الأولى بـ: "مالك/ ملك/ صاحب القبلتين"[42]، مما يشهد على أنه كان يمارس سلطته على مكة والقدس، وهو أيضًا "خادم الحرمين الشريفين" أي الأماكن المقدسة في الإسلام: المسجد الحرام بمكة ومسجد الرسول (ص) بالمدينة المنورة. وقد استخدم صلاح الدين الايوبي هذا اللقب لأول مرة في عام 587هـ/ 1191-1192م عندما ذكر اسمه بعد اسم الخليفة في خطبة الجمعة في مكة[43]. ومن الممكن أن بيبرس استخدم هذا اللقب لصالحه باعتباره وريثًا للأيوبيين، لكنه في الواقع حصل على هذين اللقبين من خلال قيامه بإعادة الخلافة في القاهرة وإيوائه الخليفة العباسي الذي لابد وأن يذعن لطاعته شرفاء مكة، والذي فوض إليه حكم بلاد الخلافة كما ذكر سابقاً. وكانت النتيجة المباشرة والملموسة لهذا العمل السماح لبيبرس بممارسة سيادة رمزية أكثر منها واقعية على المدن المقدسة في الحجاز، واستعادة الهيبة التي تتعلق بها. فقد سمح الظاهر-على سبيل المثال-بذكر اسم بركة خان بعد اسمه في مكة والمدينة والقدس[44]. وقد أراد بهذا العمل تحقيق هدفين: من جهة يظهر تقديره لخان القبيلة الذهبية، ومن جهة أخرى يظهر أن سلطته تمارس في الأماكن المقدسة للإسلام، وهكذا يعيد تأكيد ادعائه بأنه زعيم "الأمة" الأول.

ثالثا. استخدام بيبرس للرمزية القرآنية

أمر بيبرس، فور استيلائه على السلطة، ببناء نصب تذكاري بالقرب من عين جالوت عرف بمشهد النصر وذلك لإحياء ذكرى انتصار المماليك على المغول والذي أحدث دويّ كبير في العالم الإسلامي. ذكر الجغرافيون العرب عين جالوت على إنها قرية تقع بين بيسان ونابلس في فلسطين[45]، وهو المكان نفسه الذي يقال إن داود عليه السلام قتل فيه جالوت الذي ورد اسمه في القرآن الكريم[46]. يربط ابن عبد الظاهر كاتب سيرة بيبرس بوضوح موقع عين جالوت بالحديث القرآني حول جالوت وطالوت. في القرآن الكريم واجه الملك طالوت بجيشه الصغير جالوت الملك الجبار ومعه قومه الكافرين الذين كانوا يحتاجون إلى قوة كبيرة لمواجهتهم. وعلى الرغم من العدد القليل من الرجال الذين كانوا معه انتصر طالوت بعد أن تمكن النبي داوود من قتل جالوت[47]. وبنفس السياق نرى كيف إن الله تعالى انتصر لبيبرس على المغول في هذا المكان لأنه المكان المقدس نفسه الذي اصطدم فيه طالوت وجالوت، وسفكت فيه دماء الأعداء.

---

[41] الأنبياء، 89.

[42] القبلتين: هما المسجد الحرام بمكة قبلة المسلمين، والمسجد الأقصى في بيت المقدس قبلة المسلمين الأولى قبل أن يؤمروا نهائياً بالتوجه في صلاتهم نحو المسجد الحرام في السنة الثانية للهجرة/الثامنة الميلادي. الباشا، الألقاب الإسلامية، ص 273.

[43] الباشا، الألقاب، ص 267-268.

[44] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 174.

[45] عين جالوت: بلدة تقع إلى الشمال الغربي من مدينة بيسان، على مسافة عشر كيلومترات على نهر الجالود بجوار عين ما يطلق عليها الاسم نفسه، ويذكرها السكان المحليون باسم عين جالود. انظر الحموي، معجم البلدان، ج 4، دار صادر، بيروت، د. ت.، ص177.

[46] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 91.

[47] ""فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن

ومما سبق يمكن القول إن بيبرس–المملوك المفتقد للنسب الصريح–أراد الاستفادة من موقع عين جالوت–الذي تم تحديده على أنه حرب قرآنية ضد الوثنيين–ليضع نفسه ضمن سلالة الملوك المؤيدين من الله في معاركهم ضد الشعوب الكافرة. لذلك، ومنذ البداية، يظهر بيبرس كبطل منقذ خلص المسلمين من خطر وهمجية المغول الوثنيين. لقد سعى بيبرس الذي تعلم وتربى كمملوك ثم أسلم وأعتق إلى جعل الناس ينسون افتقاده إلى الأصل الإسلامي الصريح وذلك بتعزيز صورته كمسلم ورع صالح من خلال قيامه بأعمال تخدم الإسلام وتعزز مظاهر التقوى الشخصية، ففي عام 667هـ/1269م قام بالحج إلى مكة–والحج أحد أركان الإسلام التي لم ينجزها صلاح الدين نفسه– ثم ذهب إلى القدس، وعند عودته من الحج إلى "القبلتين" قرر أن يؤسس مسجداً وضريحًا على قبر النبي موسى[48]. وكان لهذا الاختيار هدف صريح وهو: إحياء وتخليد ذكرى انتصاراته على الكفار مستفيداً من الصدى القرآني للمكان، إذ ورد في القرآن الكريم: "ولقد أتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهم إلى ربوة ذات قرار ومعين"[49]. وبحسب المفسرين فإن "الربوة" هي "الكثيب الأحمر" الذي ورد ذكره في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" أتيت –وفي رواية أخرى مررت–على النبي موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره"[50]، وقد حدد موقع الكثيب بين القدس والرملة[51]. واستناداً إلى هذا حدد بيبرس مكان قبر النبي موسى عليه السلام شرقي مدينة القدس في منطقة اشتهرت بوجود أديرة وقلالي للنصارى، فأمر بهدم هذه القلالي وببناء قبة ومسجد عليه، وقام بوقفه، وعرف الموقع باسم مقام النبي موسى[52]. يشير النقش الموجود على الضريح مباشرة إلى قيام بيبرس بالحج إلى مكة المكرمة: "....أمر بإنشاء هذا المقام الكريم ...مولانا الملك الظاهر ...وذلك بعد عودة ركابه العزيز من الحج المبرور وتوجهه لزيارة القدس الشريف..."[53]، ويبدو أن بيبرس رأى أنه من المهم تحديد موقع ضريح النبي موسى بالقرب من مدينة القدس في منطقة بها العديد من الأديرة المسيحية وذلك لإظهار وتأكيد إسلامية المنطقة ولتخليد ذكرى النبي موسى –عليه السلام– وللتذكير برحلة الإسراء والمعراج ومرور النبي محمد (ص) على قبره.

وفي نفس الصدد يوجد نقش على قلعة دمشق مؤرخ في جمادى الثانية 673 / كانون الأول 1274 وصف فيه بيبرس بـ " زين الحج والحرمين"[54]، ويمكن عدّ هذا اللقب على هذا النصب الذي هو رمز السلطة السياسية بمثابة إعلان أن

فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ، وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ". القرآن الكريم، سورة البقرة، 2.

[48] ابن شداد، عز الدين محمد، تاريخ الملك الظاهر، تح. أحمد حطيط، ويسبادن، 1983، ص 351.

[49] القرآن الكريم، سورة المؤمنون، 50.

[50] مسلم، صحيح مسلم، ج. 4، ص 1845.

[51] مشعل، تاريخ الحركة العمرانية بفلسطين، 2011، ص 65.

[52] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص 351.

[53] تذكر المصادر التاريخية أن الظاهر بيبرس بعد قيامه بالحج إلى مكة المكرمة سنة 667هـ/1268م عاد بطريق الكرك إلى دمشق وحلب، ثم زار منطقة القدس وما حولها، وزار دير السيق والتقى الرهبان هناك، ثم زار قبر موسى عليه السلام..... يعود تاريخ هذا النقش إلى عام 668هـ/1269 ونقش على لوح رخامي على شكل محراب موجود خارج الحائط الشرقي لغرفة الضريح وداخل المسجد. للمزيد انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص 194، الكتبي، فوات الوفيات، ج1، تح. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1973، ص 243.

[54] الباشا، الألقاب، ص 323.

الظاهر بيبرس مسلم صالح وتقي، وأنه قد أوفى بواجب الحج الشرعي، وهو يعكس بالتأكيد رغبة السلطان في السيادة على الحرمين.

رابعا. انتصارات بيبرس العسكرية ورسم صورة جديدة للمنطقة

إن العمائر التي تظهر عليها نقوش بيبرس هي رموز تخلد ذكرى أعماله الحربية ضد الفرنجة والمغول والإسماعيلية[55]، وقد شكلت استعادة الأراضي العربية الإسلامية من العدو مناسبات عديدة لبيبرس لإعادة رسم خارطة دينية جديدة في بلاد الشام، حيث يمكننا أن نرى إرادته ورغبته في أسلمة المنطقة وتطهيرها من آثار الكفار.

بعد انتصاراته الأولى على الفرنجة، عاد بيبرس إلى الخليل[56] في رجب 664 / نيسان 1266 لإتمام الحج إلى مقام النبي إبراهيم، وقام بترميم قبور البطاركة هناك[57]. في ذلك الوقت، كان هذا المقام أيضاً مكاناً لحج اليهود والنصارى، لكن بيبرس أصدر أمراً يمنعهم من الدخول إليه بحجة أنهم أدخلوا "نجاستهم ورجسهم فيه"[58]. وبعد سيطرته على يافا وانتزاعها من الفرنجة في 20 جمادى الثاني 666هـ/آذار 1268م أمر بيبرس ببناء الجوامع في المنطقة لإظهار شعائر الإسلام، وإزالة المنكرات منها[59]. وإدراكاً منه لأهمية فلسطين وقدسية مدينة القدس في نظر المسلمين، فقد ترك بيبرس بصمة الإسلام في المنطقة كلها عن طريق إقامة العمائر الدينية[60].

وفي السياق نفسه يمكن عدّ ما قام به بيبرس في قارة مثال آخر على تنفيذه لسياسة التطهير، وقارة هي قرية تقع على الطريق من حمص الى دمشق سكانها نصارى بالكامل[61]. ذكر المؤرخون إن السلطان كان قد كلف والي حماة الملك المنصور[62] بقيادة الجيش المملوكي ضد سيس[63] عاصمة إمارة أرمينيا الصغرى في كيليكيا[64]، وقد تمكن المماليك من

---

[55] الاسماعيلية: هم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه جعفر، وبذلك اختلف عن الشيعة الإمامية الاثني عشرية الذين قالوا بإمامة موسى الكاظم بعد جعفر الصادق. وكانت الدولة الفاطمية على المذهب الإسماعيلي، وبعد وفاة الخليفة المستنصر بالله حصل انشقاق في صفوف الإسماعيلية نتج عنه انقسامهم إلى فريقين: واحدة تقول بإمامة المستعلي بالله وسميت المستعلية وانتشرت في مصر واليمن، والثاني تقول بإمامة نزار وسميت النزارية وانتشرت في فارس والشام. للمزيد انظر مرجونة، المغول، ص 36-38.

[56] الخليل: واسمها بيت حبرون وهي بلدة من جبل فلسطين، وفيها قبر إبراهيم الخليل. انظر النابلسي (عبد الغني)، الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، مطبعة الإخلاص، مصر، 1952، ص 70.

[57] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص 350.

[58] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 251.

[59] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 293.

[60] ابن شداد، الظاهر بيبرس، ص 351.

[61] توراو، الظاهر بيبرس، ص 168.

[62] الملك المنصور الثاني محمد بن محمود بن محمد (642-683هـ/1244-1284م) حكم إحدى وأربعين عاماً تقريباً اثنتان وثلاثون عاماً في عصر سلاطين المماليك. كان له دور كبير في رسم سياسة الأسرة الأيوبية، وعلاقتها من الدولة المملوكية، حين توجه إلى القاهرة وقاتل من السلطان المظفر قطز في معركة عين جالوت، وعندما تولى بيبرس السلطة دخل في طاعته، واستمر في حكم مدينة حماة. انظر أبوراس (عبد الرحمن صادق)، علاقة مملكة حماة بدولة سلاطين المماليك، التناشر التركي، طنطا، ط1، 1993، ص 16.

[63] سيس أو سيسة بلغة أهلها، وكانت إحدى مدن الثغور الشامية، تقع بين أنطاكيا وطرسوس على عين زربة. جرى عمارتها عدة مرات بعد أن خربها الروم، وقد جرى ذكر لسيس بوصفها عاصمة أرمينيا الصغرى، ومقر لملوك كيليكيا من الأرمن وكان يطلق على ملوكها لقب التكفور ومتملك سيس. القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص 29.

تخريب وتدمير المدن الأرمنية وهزيمة الجيش الأرمني وأسر أفراد من الأسرة الحاكمة. بعد وصول أخبار النصر توجه الظاهر بيبرس على الفور من دمشق للقاء القوات المملوكية العائدة من سيس، وعند مروره بقارة أمر بقتل من بها من سكانها النصارى بتهمة قيامهم بخطف المسلمين وبيعهم للفرنجة كعبيد[65]. وكان بيبرس قد أخرج كل سكان المدينة وأمر جنوده بقطع رؤوسهم، ثم قام الجيش بقتل رهبان دير يقع خارج قارة. كما تعرضت المدينة للنهب والسلب، وتحولت الكنيسة الموجودة فيها الى جامع، وتم استبدال سكان المدينة بالتركمان[66]. من خلال هذا العمل يقدم بيبرس نفسه في دور حامي رعاياه المسلمين، ويظهر إصراره على القضاء على نصارى المنطقة. إن رغبة الظاهر بيبرس في إعادة أسلمة المواقع والمناطق التي استولى عليها الفرنج سابقاً واضحة بشكل كبير في النقوش الأثرية. في صفد التي تم استعادتها من الفرنج في 15 شوال 20/664 تموز 1266م، يوجد نقش طويل على قلعتها لا يحمل أي عنوان أو اسم لكن المحتوى واضح حول الرغبة في استئصال المسيحية اللاتينية من بلاد الشام: " أمر بتجديد هذه القلعة وتحصينها وتكملة عمارتها، وتحسينها من بعد ما خلصها من أسر الفرنج الملاعين، وردها إلى يد المسلمين، ونقلها من إخوة الديوية (فرسان الداوية) إلى إخوة المؤمنين، وأعادها إلى الإيمان كما بدأ بها أول مرة وجعلها للكفار خسارة وحسرة، واجتهد وجاهد حتى بدل الإيمان بالكفر، والناقوس بالأذان، والإنجيل بالقرآن، ووقف بنفسه حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرؤوس، السلطان الملك الظاهر أبو الفتوح بيبرس، فمن صارت إليه هذه القلعة من ملوك الإسلام، ومن سكانها من المجاهدين فليجعل له نصيباً من أجره"[67]. وبمجرد استعادة القلعة من الفرنجة الأعداء تحولت إلى معقل للمسلمين.

ويخلد النقش الموجود على الجامع الأبيض في مدينة الرملة[68] ذكرى انتصارات الظاهر بيبرس على "أهل الشرك والعناد"، كما إن استيلائه على يافا[69] تم "بإذن الله"، وقيل إن محراب جامع هذه المدينة هو أكبر المحاريب المعروفة، كما أن لديه مئذنة رائعة. وكان بيبرس قد أمر في سنة 666هـ/1267-1268م ببناء قبتين على المئذنة وعلى المحراب ليشكر الله على فوزه في يافا[70]. علاوة على ذلك، فإن شخصية بيبرس المقاتل في سبيل الإسلام تؤكدها أربعة ألقاب بسيطة هي: "المجاهد، المرابط، المثاغر، الغازي"، وجميعها لها علاقة وثيقة بالجهاد.

---

[64] أرمينيا الصغرى قامت في إقليم قيليقيا "كيليكيا"، أي الإقليم الواقع في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى، بين جبال الأمانوس شرقاً، وجبال طوروس في الشمال والشرق، أما من ناحية الجنوب فيحدّها البحر المتوسط، ومن أشهر مدنها سيس، وأياس والمصيصة. تأسس فيها إمارتين الروبينية والهيتومية. كانت هذه الإمارة في عهد الهيتومين سنداً للفرنجة والمغول. للمزيد انظر

STEWART, A. D., *The Armenia Kingdom and the Mamluks war and diplomacy during the reigns of Het'um II (1289-1307)*, Brill, Leiden. Boston. Koln, 2001.

[65] توراو، الظاهر بيبرس، ص 168.

[66] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج30، تح. نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ص 186-187، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج 2، ص 344-345.

[67] ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص 285-286، النويري، نهاية الأرب، ج30، ص 88-89.

[68] الرملة: مدينة قرب غزة من فلسطين، بناها سليمان بن عبد الملك، بينها وبين القدس يوم واحد. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 99.

[69] يافا: مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا في الإقليم الثالث. افتتحها صلاح الدين عند فتحه الساحل، ثم استولى عليها الإفرنج. للمزيد انظر الحموي، معجم البلدان، ج5، 2008، ص 436.

[70] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص 352، النويري، نهاية الأرب، ج30، ص 189-190.

لقد حاول بيبرس الارتباط بشكل رمزي بالشخصيات الإسلامية الكبيرة التي أخرجت الإسلام من شبه الجزيرة العربية ونشرته في كل مكان، فقام ببناء ضريح له على قبر خالد بن الوليد الملقب "سيف الله" في حمص[71]. ووفقًا للمصادر الإسلامية قاتل خالد ضد النبي في معارك عدة ثم اعتنق الإسلام وشارك في فتح مكة. ويعدّ خالد بن الوليد من المشاركين بفتح بلاد الشام، ومن الذين قادوا الحملات الإسلامية على الحدود البيزنطية. في بلاد الشام قاتل خالد بن الوليد تحت قيادة أبو عبيدة بن الجراح[72] الذي كان لبيبرس أيضا قبة مبنية على ضريحه الواقع شرقي نهر الأردن في ذو الحجة 675هـ/1277م[73]. وقد تم اختيار هاتين الشخصيتين العربيتين من القرون الأولى للإسلام بشكل خاص لتقديم بيبرس على إنه المحارب الجديد للعقيدة الإسلامية في بلاد الشام.

تشير إحدى النقوش الموجودة في ضريح خالد بن الوليد والمؤرخة في ذو الحجة 664 هـ/ أيلول 1266 إلى الانتصارات التي حققتها جيوش المماليك في أرمينية الصغرى. لم يشارك بيبرس شخصيًا في هذه المعارك، وهو ما يفسر بلا شك عدم دقة الوصف: " أمر بإنشائه على حرم سيف الله وصاحب رسول الله خالد بن الوليد رضي الله عنه مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين وسلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين محي العدل في العالمين ملك البحرين صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين، وأزين الملك سلطان العرب والعجم والترك إسكندر الزمان صاحب القرآن بيبرس الصالحي قسيم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه عند عوده على حمص للغزاة ببلاد سيس وذلك في شهر ذي الحجة سنة أربعين وستين وستماية"[74]. وهنا يربط بيبرس الذي لا يريد أن تفلت منه هيبة ونشوة النصر، إقامة الضريح على شرف مقاتل من بدايات الإسلام بالحملة المنتصرة لقوات المسلمين في أرمينيا الصغرى.

تعكس الألقاب التي منحت لبيبرس في عمائر حمص انتصاراته الأخيرة ضد الأعداء، إذ لقب "قاهر الخوارج والمتمردين"، وهذا الاسم أي "قاهر" من أسماء الله الحسنى، وكان بيبرس في هذه الفترة قد اتخذ أولى إجراءاته ضد الإسماعيليين الذي أنبهم على دفع الجزية للفرنجة وأمرهم بقيادة الجهاد إذا لم يرغبوا في أن يتم إشعال النار في قلاعهم وبلادهم[75]. كما لقب "قاتل الكفرة والمشركين"، وهذا اللقب، الموجود في نقش ضريح خالد بن الوليد، يضع بيبرس ضمن لائحة مقاتلي الإسلام البارزين من فتح الشام حتى عصره. بالإضافة إلى ألقاب "مبيد الفرنج والأرمن والتتار" و"فاتح

---

[71] حمص: مدينة فسيحة ولها سور، وهي بين حلب ودمشق. للمزيد انظر الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 302-304. خالد بن الوليد يعد من القيادات المشهورة في صدر الإسلام. حارب المسلمين قبل أن يسلم في بعض الحروب مثل بدر وأحد والأحزاب. أسلم في سنة 8هـ/629م وشارك بعد إسلامه في غزوة مؤتة وفتح مكة، وفي حروب الردة وفتح الشام. توفي سنة 22هـ/643م. للمزيد انظر ابن الأثير (علي بن محمد)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج2، تح. علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت، 1994، ط1، ص 140.

[72] أبو عبيدة بن الجراح: أحد أصحاب النبي (ص) شارك معه في غزوتي بدر وأحد. كما كان له تأثير في الفتوحات. كان عمر بن الخطاب قد عينه قائداً عاماً للجيش الإسلامي الذي فتح الشام. توفي أبو عبيدة بمرض الطاعون الذي حل بمدينة دمشق سنة 18هـ/ 639م. للمزيد انظر ابن الأثير، أسد الغابة، ج6، ص 201.

[73] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص 351.

[74] العش (أبو الفرج)، أخشاب من تربة جامع خالد بن الوليد القديمة بحمص، الحوليات الأثرية السورية، مجلد 19، دمشق، 1969م، ص 23.

[75] للمزيد عن العلاقة بين بيبرس والاسماعيلية انظر توراو، الظاهر بيبرس، ص 166، 169-170.

الحصون والقلاع والأمصار" تم استخدامها لأول مرة من قبل بيبرس بعد انتصاراته على الفرنجة والمغول وحلفائهم المسيحيين، وإجلائهم عن الكثير من حصونهم وأملاكهم في المشرق العربي الإسلامي.

كما تعبر النقوش المنحوتة في ضريح خالد في حمص عن امتداد سلطة بيبرس، إنه "ملك البحرين" وهو أول من استخدم هذا اللقب، وهنا الإشارة إلى أنه يمارس سلطته على البحر الأحمر والبحر المتوسط[76]. كما يشار إلى بيبرس بأنه: "سلطان العرب والعجم والترك"، ويبدو أيضاً أنه أول من استخدمه، وتشير تفاصيل اللقب إلى المكونات الرئيسية الثلاث للعالم الإسلامي في ذلك الوقت وهم: "العرب والفرس والترك[77]. ويدل هذا اللقب إلى المناطق التي يتطلع السلطان إلى إقامة سلطته عليها: أي أن سلطته ستشمل دار الإسلام بأكمله كما كان الوضع في العصر العباسي، وهو من مترادفات ألقاب السيادة العامة التي كان سلاطين المماليك يدّعونها.

خامسا–الظاهر بيبرس "ذو القرنين" و"الإسكندر الجديد"

منح الظاهر بيبرس في بعض النقوش لقباً مزدوجاً: "اسكندر الزمان" و"صاحب القرنين" وهما لقبان مرتبطان بلا شك بحقيقة أن عهد السلطان بيبرس كان قد تنبأ به المنجمون سابقاً[78]. وقد استخدم لقب إسكندر الزمان في العصور القديمة من قبل عدد من الغزاة الذين كانوا يدعون أحقيتهم بميراث امبراطورية الحاكم المقدوني[79]. أما في العالم الإسلامي فقد ظهر التعريف بشخصية الإسكندر باسم "إسكندر الثاني" أو "إسكندر الزمان"، وقد استخدم من قبل خوارزم شاه[80] والسلاجقة[81]، ومع ذلك فقد كان استخدام هذا اللقب نادراً جداً قبل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. ويعدّ بيبرس أول حاكم يتبناه في المشرق العربي الإسلامي، وحصرياً في بلاد الشام حيث ظهر على العمائر الدينية في جامع قارة وضريح حمص وضريح النبي موسى التي ذكر سابقاً الأهمية الرمزية التي يعلقها بيبرس عليهم. وقد نقشت هذه الألقاب بعد عمليات عسكرية واسعة النطاق بين عامي 664هـ–666هـ/1265–1267م[82].

عرف الإسكندر بأنه الرجل" ذو القرنين " المذكور في القرآن الكريم: "قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا"[83]. واستناداً للمفسرين المسلمين كان هذ الرجل حاكماً

---

[76] الباشا، الألقاب، ص 445.

[77] الباشا، الألقاب، ص 337.

[78] يذكر المؤرخون أن بيبرس عندما كان في دمشق في خدمة الناصر يوسف الأيوبي خرج ذات يوم راكباً في نزهة ولقي شيخاً يسمى الخضر بن أبي بكر في مغارة وتنبأ بأنه سيصبح سلطاناً. للمزيد انظر توراو، الظاهر بيبرس، ص 203.

[79] الإسكندر المقدوني الثالث أو الإسكندر الكبير: هو أحد ملوك مقدونيا الإغريق، ومن أشهر القادة العسكريين والفاتحين عبر التاريخ. وُلد الإسكندر في مدينة پيلا قرابة سنة 356 ق.م، وتتلمذ على يد الفيلسوف والعالم الشهير أرسطو حتى بلغ ربيعه السادس عشر. وبحلول عامه الثلاثين، كان قد أسس إحدى أكبر وأعظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم، والتي امتدت من سواحل البحر الأيوني غربًا وصولاً إلى سلسلة جبال الهيمالايا شرقًا. يُعد أحد أنجح القادة العسكريين في مسيرتهم، إذ لم يحصل أن هُزم في أي معركة خاضها على الإطلاق. للمزيد انظر لامب، هارولد، الاسكندر المقدوني، الدار العربية للموسوعات، 2007، ص 18–20.

[80] يرجع أصل الخوارزميين إلى إسرة أنوشتكين التركية، ويعد أنو شتكين مؤسس هذه الدولة، وكان قد تدرج في وظائف الدولة السلجوقية حتى عينه السلطان ملكشاه السلجوقي والياً على خوارزم عام 470هـ/1077م ثم استقلوا عن السلاجقة عام 529هـ/1134م. للمزيد انظر العبود (نافع توفيق)، الدولة الخوارزمية، مكتبة الجامعة، بغداد، 1987، ص27.

[81] الباشا، الألقاب، ص 298.

[82] توراو، الظاهر بيبرس، ص 151–172.

[83] القرآن الكريم، سورة الكهف، 94.

مؤمناً صالحاً يتنقل في شتى بقاع الأرض لينشر الخير والصلاح. فذهب إلى أقاصي الأرض إلى أماكن غروب الشمس وشروقها، ثم وصل إلى مكان يقع بين حاجزين من جهة مشرق الشمس كان فيه شعب لا يفهم أي لغة ضعيف وبعيد عن الحضارة، وعندما وصل إليهم وجدوه حاكماً أتاه الله من قوة فطلبوا منه المساعدة ليحميهم من قبائل متوحشة امتهنت السلب والنهب والإغارة يقال لهم يأجوج ومأجوج وأن يبني بينهم سداً مقابل المال فوافق الرجل، ولكنه لم يرض أن يأخذ المال وزهد عنه، وقام على الفور ببناء السد لمنعهم من الأذى[84].

واستناداً إلى هذا، يمكن القول إن استخدام لقب "الإسكندر" في نقوش بيبرس هو تلميح مباشر إلى ذو القرنين المذكور في القرآن الكريم. وبالفعل، أدى اجتياح وتوغل المغول لدار الإسلام إلى تجدد المخاوف باقتراب الساعة، وتم تشبيههم (أي المغول) مثل معظم الغزاة منذ العصور القديمة بشعوب " يأجوج ومأجوج" الذين كان ظهورهم وزيادة عددهم تنذر بقيام الساعة ونهاية الزمان[85]، فهم قوم ذو بأس شديد، ولم تطق جميع الأمم قتالهم ولم يقدر عليهم أحد في تلك الفترة، وفي هذا السياق يظهر بيبرس على أنه "ذو القرنين" جديد بما أنه تمكن من إيقاف توغل واندفاع المغول على بلاد الشام. لقد أراد الظاهر دون شك الاستفادة من الأهمية الدينية لشخصية الإسكندر واستخدامها في العمائر الدينية الثلاثة التي تأسست بعد انتصاراته المدوية على الأعداء وقيامه بواجب الحج، وكل هذا في إطار سعيه للشرعية القائمة على أفعال لصالح خدمة الإسلام. علاوة على ذلك، فإن استخدام "الإسكندر" القرآني في ضريح أحد الفاتحين المسلمين الأوائل لبلاد الشام كان بمثابة إرساء استمرارية بين الإسكندر، وخالد بن الوليد، وبيبرس نفسه.

إن الدور الأخروي لبيبرس –المشار له باسم الإسكندر الجديد في نقوشه–تم العثور عليه في نص لعلاء الدين ابن النفيس[86] بعنوان "الرسالة الكاملية في السيرة النبوية". يحتوي هذا النص على معلومات ذات طبيعة تاريخية، وقد خصص فصلين كاملين للحديث عن السلطان بيبرس، وعن أخلاقه وخصائصه الجسدية وفترة حكمه[87]. كما يصف تدهور الحياة الدينية والتهديدات بالدمار من الخارج والأحداث المتعلقة باقتراب الساعة التي يجب أن تسبق نهاية الزمان. يقدم ابن النفيس رؤية "نبوية" للظاهر بيبرس فيصوره على أنه الحاكم المنتصر الذي قدّره الله لإنقاذ الأمة الإسلامية: "لو لم يكن هذا السلطان شديد البأس جداً حتى يكون وحده في مقاتلة جيش كثير لم يتمكن من مقاومة هؤلاء الكفار ومنعهم من الاستيلاء على بلاده"[88]. ويرى أن ما حل بالمسلمين كان بسبب غضب الله عليهم لعدم تمسكهم بالدين الإسلامي، وعدم التزامهم بشريعته، ولإغراقهم في الملذات التي نهى عنها، وبمعنى آخر إن عدم احترام تعاليم الله

---

[84] ابن كثير (ت. 774هـ/ 137م)، البداية والنهاية، ج2 تح. علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988، ص 122–126.

[85] AIGLE, D., "Figures, mythiques et histoire. Reinterpretations et contrastes entre Orient et Occident", in *Figures mythiques des monde musulmans*, p. 62–64.

[86] أبو الحسن علاء الدين علي بن أبي الحرم القَرشي الدمشقي الملقب بابن النفيس ولد في دمشق سنة 607هـ/1210م، هو عالم جليل، وطبيب من أكبر أطباء العرب المسلمين، له مساهمات كثيرة في تطور الطب، ويعدّ من رواد علم وظائف الأعضاء في الإنسان، حيث وضع نظريات يعتمد عليها العلماء إلى الآن. كما إنه يعد مكتشف الدورة الدموية الصغرى. عين رئيس أطباء مصر وعمل في البيمارستان المنصوري. درس ابن النفيس أيضًا الفقه الشافعي، كما كتب العديد من الأعمال في الفلسفة، وكان مهتما بالتفسير العقلاني للوحي، ودرس اللغة والمنطق والأدب توفي في القاهرة عام 687هـ/1288 م. للمزيد انظر الدفاع (علي عبد الله)، أعلام العرب والمسلمين في الطب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983، ص 201–213.

[87] ابن النفيس (علي بن أبي الحزم ت. 687هـ/1286م)، السيرة الكاملية في السيرة النبوية، تح. عبد المنعم محمد عمر، مر. أحمد عبد العزيز هريدي، مطابع الأوفست، القاهرة،1987، ص 229–236.

[88] ابن النفيس، الرسالة الكاملية، 229.

ونواهيه وانتشار الفواحش كانت السبب في الغزو المغولي للأراضي الإسلامية الذي جاء كعقاب إلهي[89]. ويبدو مما جاء في هذا الكتاب إن الغرض من هذا النص هو حث المجتمع الإسلامي على قبول سلطة السلطان المنتصر، سلطان قاسٍ لا يرحم. إنه يستولي على ممتلكات رعاياه لتمويل الحرب ضد الكفار، ويأمر بالعقوبات المثالية وهي ضرورة حتمية لرفاهية المجتمع الذي "يُطهر من خطاياه" فيقول عنه:" إنه لا بد وأن يكون عند الناس مشهوراً بالشهامة والسطوة والقدرة، فلا بد أن يكون عند جميع الناس مهيباً مخوفاً، فلذلك لا بد وأن يكون جميع هؤلاء حسنى الطاعة له، والانقياد لأوامره، خائفين من سطوته..."[90]، "ويلزم ذلك أن يكون قوي القلب جداً، فلذلك لابد وأن يكون قاسياً، فلذلك تقل رحمته، فلذلك يكثر منه صدور العقوبات وقطع الأطراف والصلب ..ونحو ذلك"[91]. كما يصرّ ابن النفيس على أن هذا السلطان يجب أن يأتي من جهة الشمال (أي من موطن بيبرس الأول) وإلا فلن يتمتع بالشخصية القوية الكافية لإنجاز مهمة الإنقاذ هذه[92]. وهكذا يمكن القول إن ابن النفيس على الرغم من أنه لا يتبع خط النقوش وكتّاب سيرة بيبرس الذين يبالغون في فضائل ومزايا ومزاعم السلطان المملوكي، إلا أنه يقدمه على أنه ضرورة للحفاظ على الأمة والمجتمع الإسلامي. إن هذه الرسالة تتبنى شرعية بيبرس بشكل سلبي فيما يتعلق بالحاكم المثالي، لكنها في المقابل تنسب إليه دوراً يتوافق أهميته الأخروية مع معنى لقب "إسكندر الزمان" في النقوش الأثرية.

الخاتمة

يظهر بيبرس من خلال الألقاب التي خصصت له كحاكم مسلم مثالي، ومقاتل من أجل الإسلام. ويبني شرعيته على أفعال لصالح الإسلام، لكنه يسعى أيضًا إلى التخفيف من افتقاره إلى النسب في مواجهة" السلالة الإمبراطورية لمغول فارس التي فوضتها "السماء الأبدية" لإخضاع كل أمم الأرض لسلطتها. لقد سعى بيبرس منذ استلامه للسلطة إلى محو افتقاده للنسب الصريح من خلال الارتباط الرمزي بسلسلة من المقاتلين المؤيدين من قبل الله تعالى، كما يتضح من النصب التذكاري الذي أقامه في عين جالوت لإحياء ذكرى انتصاره الكبير على القوات المغولية. كما أنه حاول أن يرتبط مع المقاتلين المسلمين الأوائل في بلاد الشام من خلال التوجه بترميم أضرحتهم حيث حفر عليها نقوش طويلة. وتشير هذه النقوش الضخمة أيضًا إلى أن بيبرس كان لديه مشروع لإنشاء سلالة من خلال ذكر اسم ابنه السعيد ناصر الدين الذي ظهر في 25 شعبان 669هـ/18 نيسان 1275م، بعد عشر سنوات من استيلائه على السلطة في نقشين حفرا في مكان رمزي مأخوذ من الفرنجة وهو قلعة الأكراد[93]، لكن بدون التخلي عن الارتباط بالشرعية الأيوبية التي كانت حاضرة في النقوش من خلال الاحتفاظ بلقب الصالحي (نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب).

أسس بيبرس نصبًا دينية في القاهرة، لكن اللافت للنظر أن الألقاب التي تم نقشها هناك فقيرة في التأريخ مقارنة بتلك الموجودة في بلاد الشام. واللقب الوحيد ذو الشق السياسي القوي والذي يظهر على كل الصروح هو الذي يعبر عن

---

[89] ابن النفيس، الرسالة الكاملية، 220-224.

[90] ابن النفيس، الرسالة الكاملية، ص 242.

[91] ابن النفيس، الرسالة الكاملية، ص 229-230، 233.

[92] "لابد وأن يكون شمالياً، ولابد وأن يكون أيضاً من شمالي المشرق لأن شمالي المغرب إنما يوجد فيه قوم جزريون فتكون أمزجتهم غير ملائمة للأخلاق المذكورة، فلذلك لابد وأن يكون هذا السلطان إما من أرض أولئك الكفار، أو من أرض تقرب منهم". ابن النفيس، الرسالة الكاملية، ص 230.

[93] قلعة الأكراد: يقع غرب مدين حمص على الطريق بينها وبين طرابلس، وسمي بهذا الاسم لأن أمير حمص سنة 423هـ/1031م أسس هذا الحصن، وأسكن به حامية من الأكراد. انظر الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 264.

علاقته بالخليفة: "قسيم أمير المؤمنين" و"الآمر ببيعة الخليفتين". لذلك يبدو أن ازدهار النقوش والألقاب في بلاد الشام هو تعبير عن دعاية للاستخدام الداخلي في هذا الجزء من السلطنة المملوكية. يؤكد بيبرس شرعيته في ممارسة السلطة، وهي سلطة كما رأينا ذات طبيعة أخروية (متعلقة بالآخرة وقيام الساعة)، في مكانين بمهمة رمزية قوية: الجامع الذي تأسس في قرية قارة بعد القضاء على سكانها النصارى، وضريح النبي موسى الذي أسس عند عودته من الحج إلى مكة والقدس. ترك بيبرس بصماته كمقاتل للإسلام في المنطقة من خلال تشكيل الأراضي التي تم الاستيلاء عليها من الفرنجة، وبالتالي رسم خريطة دينية جديدة. تتوافق صورة بيبرس التي تنبثق من نقوشه الضخمة مع تلك الموجودة في سيرته الذاتية. ويهدف هذان النوعان من المصادر إلى إرساء أسس شرعية سلطة الحاكم.

References

Le Coran (Al-Qur'an al-Karim)

ABORAS, A. R. S., 'Alaqat mamlakat Hama bi Daoulat Salatin al-Mamalik, al-Nashir al-Turki, Tanta, 1993.

ABU AL-FIDA', Taquim al-Buldan, Dar Sadir, Bayrout.

AIGLE, D., "Figures, mythiques et histoire. Reinterpretations et contrastes entre Orient et Occident", in Figures mythiques des monde musulmans, PP. 37-71.

AL_MANSOURI, Mukhtar al-Akhbar, Tarikh al-Dawla al-Ayoubyya wa dawlt al-Mamalik al-Bahriyya, al-Dar al-Misriyya al-Lubnaniyya, Beyrouth, 1992,

AL_QARMANI, Akhbar al-Dwal wa Athar al-'wal fi al-Tarikh, ed. Ahmad Hutait, vol. 2, 'Alam al-Kutub, Beyrouth, 1992.

AL-'Ish, A. F., Akhshab min turbat jami' Khalid bin al-Walid bi Houms, Al-Haouliyyat al-'Athariyya al-Souriyya, vol. 19, Damas, 1969.

AL-ABOUD, N. T., Al-Daoula al-Khaoarzmiyya, Maktabat al-Jami'a, Bagdad, 1987.

AL-BASA, H., Al-alqab al-islamiyya fi l-ta'rih wa l-wata'iq wa l-atar, Cairo, 1989.

AL-DIFA' , A. A., A'lam al-Arab wa l-Muslmin, fi l-Tib, Mu'asisat al-Risala, Beyrouth, 1983.

AL-HAMOUI, Mu'jam al-Buldan, Dar Sadir, Bayrout, 1977.

AL-KUTUBI, Fawat al-Wafiyyat, ed. Ihsan Abbas, 2 vols., Dar Sadir, Beyrouth, 1973.

AL-MAQRIZI, *al-Suluk li Ma'rifat Duwal al-Muluk*, éd. Muhammad Mustafa Ziyada, Matba'at Lignat al-T'alif wa al-Nasr wa al-Targama, vol. 1-2, Cairo, 1934-1958.

AL-MAWARDI, Al-Ahkam al-Sultaniyyam Dar al-Kitab al-'arabi, 1990.

AL-MUHIMD, A. S., Noufoud al-magoul fi Asia al-Soughra, al-Dr'iyya, al-Riad, n. 21-22, 2003.

AL-NABOULSI, Al-Hadra al_unsiyya fi l-rihla al-Qudsiyya, Matba'at al-Ikhlas, Misr, 1952.

AL-NUWAYRI, *Nihayat al-Arab fi Funun al-'Adab*, , éd.Mohammad 'Abd al-Hadi Sa'ira, vol.30, al-Hai'a al-Misriya al-'Ama lil-Kitab Le Caire, 1990-1991.

AL-QALQASHANDI, *Subh al-Asa fi Sinaat al-Insa*, 14 vols., al-Matba`a al-'Amiriya, Cairo, 1913-1919.

AL-RABI'I, H. S. H., Daour al-Anbia' wa l-Rusul fi Ithbat al-Adala, al-Ilahiyya fi al-Tarikh al-Islami, al-Jami'a al-Mustansariyya, Baghdad, 2017, PP. 1-21.

AL-SAFADI, Al-Wafi bi l-Wafiat, ed. Turki Mustafa and Ahmad Arna'ut, Dar Ihia' al-Turath al-Arabi, vol. 29, Bayrout, 2000.

AL-SUYOUTI, Tarikh al-Khulafa', dar al-Fikr, Beyrouth, 2001.

AL-YUNAYNY, Dayl mir'at, al-Zaman fi YTarikh al-A'ian li Sibt Ibn al-Jouzi, ed. Abass Hani al-Jarah, Dar al-Kutub al-'Ilmiyya, vol. 3, Beyrouth,
AMITAI-PREISS, R., "Mongol Imprial Ideologie and the Ilkhanid War against the Mamluks", *in Mongol Empire and its Legacy*, ed. Reuven Amitai Preiss et David Morgen, Leyde, Brill, 1999
BERCHEM, M. V., "Titres califiens d'Occident", *Journal asiatique*, 1907, PP. 245-335
ELISSEEF, N., Nur al-Din. Un grand prince musulman de Syrie au temps des Croisades (511-559h-1118-1174), Damas, Institut francais de Damas, 1967, vol. III, PP. 155-196.
HOLT, P., "Three Biographies of al-Zahir Baybars", in Medieval Historical Writing in the Christian and Islamic Worlds, Londres, School of Oriental and African Studies, 1982, PP. 19-29.
IBN ABD al-ZAHIR, *al-Rawd al-Zahir fi Sirat al-Malik al-Zahir*, éd. 'Abd al-'Aziz al-Hwaiytr, Riad, 1976, 519 pp.
IBN AL-FURAT, *Tarih al-Duwal wa al-Muluk*, ed and tr,. U. et M. C, Lyons, Ayyubids, Mamluks and Crusaders, selections from the Tar'rih, Cambridge, 1971.
IBN AYBAQ AL-DAWADAR, Kanz al-Durar wa Jami' al-Ghurar, al-Dura al-Zakia fi Akhbar al-Dawla al-Turkia, ed, Olrikh Harmman, vol. 8, al-Ma'had al-Almani lil-Athar, Cairo, 1971.
IBN KATHIR, Al-Bidaya wa l-Nihaya, ed. Ali Shiri, Dar Ihia' al-Turath al-Arabi, 13 vol., Beyrouth, 1988.
IBN KATHIR, Tafsir al-Qur'an al-'Adhim, Maktabat Dar al-Islam, Damas, vol. 2, 1948.
IBN MANZOUR, Lisan al-Arab, Dar Sadir and Dar Bayrout, 1956.
IBN NAFIS, Al-Risala al-Kamiliyya fi Sirat al-nabawiyyam ed.
IBN SHADAD, al-A'laq al-khatira fi dhkr Aumara' al-Sham wa al-Jazira, ed. Yahya Aibarh, Wizarat al-Thaqafa, Damas, 1991.
IBN SHADAD, *Tarih al-Malik al-Zahir*, éd. Ahmad Hutaiyt, Franz Steiner Verlag, Wiesbaden, 1983, 447 pp.
IBN TAGRI BIRIDI, Al-Nugum al-Zahira fi Muluk Misr wa-l-Qahira, 14 vol., Wazarat al-taqafa al-Irshad, Dar al-Kutub, Cairo, 1930-1972.
IBN WASIL, Mufarig al-Kurub fi Akhbar banu Ayyub, ed. Gamal al-SHaiyal, Matba'at Jami'at Fuad al-Awal, Cairo, 1953.
INB AL-ATHIR, Asad al-Ghaba fi Ma'rifat al-Sahaba, ed. Ali Muhammad Mou'aoad 'Adil Ahmad Abd al-Maoujoud, 2 vols., Dar al-Kutub al-'Ilmiyya, Beyrouth, 1994.
LAMB, H., Al-Iskandar al-Maqdouni, Al-Dar al-Arabiyya lil-Maousou'at, 2007.
LAYN, G., Asir al-Maghoul, tr. Taghrid al-Ghadban, Hai'at Abo Dabi lil-Siyyaha wa l-Thaqafa, 2012.
MARHOUNA, I. M. A., Al-Magoul fi al-'Alam al-Islami, dirasa Siasiyya wa Hadariyya, Dar al-Ta'lim al-Jami'I, al-Iskandariyya, 2021.
MASH'AL, U. M., Min Tarikh al-Haraka alUmraniyya bi-Falastin fi l-agd al-Mamlouki, Ama'ir al-Zahir Baybars al-khalfiat wa l-ab'ad –Khan al-Zahir fi-l-Quds, Haouliyyat al-Qudus, n. 12, 2011. PP. 63-85.
MUSLIM, Sahih, Beyrouth, Dar al-Kutub al-'ilmiyya, 1992.
RUNCIMAN, S., Tarikh al-Hamalat al-Salibia, tr. Nour al-Din Khalil, vol. 3, 1994.
ABO AL-NASIR, M. A. A., Al-Salajiqa Tarikhahum al-Siassi wa l-'Askari, 'Ayn lil-Dirasat, Cairo, Misr, 2001.
SAYYD, A. F., al-daoula al-Fatimiyya fi misr tafsir jaded, al-Dar al-misriyya al-Lubnaniyya, Cairo, 1992.

SHAFI' BIN ALI, Husun al-Manakib al-Siria al-Muntaza'a min al-Sira al-Zahiria, ed. Abd al-Aziz Khuytr,Matba'at al-Kuat al-Askaria al-Su'udia, Riadm 1989.
SHBOULAR, B., Al-‘alam al-Islami fi al-‘asir al-magouli, tr. Khaid As’ad ‘issa, mr. Suhil Zakkar, Dar “ihsan, Damas, 1982.
STEWART, A. D., The Armenia Kingdom and the Mamluks war and diplomacy during the reigns of Het’um II (1289-1307), Brill, Leiden. Boston. Koln, 2001.
SUBHI, A. M., Al-Magoul wa l-Mamalik al-siyyasa wa l-Sira’, Dar al-‘Arabi lil-Nashir, al-Iskandariyya, 2000.
SULIMAN, A.K, Al-Maghoul wa al-Mamalik hta Niyhayat Asir Al-Zahir Baybars, Dar al-Nahda al-Araiyya lil-Tbi’ wa al-Nashir wa al-Tawzi’, Cairo, 1984.
SUZI, H., Al-Fatmioun wa l-Zinkioun wa l-Ayoubioun wa l-Mamalik wa Sira’hm haoula al-Sulta fi l-Masrik al-Arabi, mr. Isam Shbaro, Dar al-Nahda al-Arabiyya, Beyrouth, 2010.
TAQOUSH, M. S., Tarikh al-Magoul al-‘Izam wa l-Ilakhaniyyin, Dar al-Nafa’Is, Beyrouth, 2007.
TAYLOUR, T., Al-Salajiqa wa tarikhahoum wa Hadaratihm, tr. Loutfi al-Khouri, Matba’at al-Irshad, Bagdad, 1968.
The Quran.
THORAU, P.,Al-Zahir Baybars, tr. Muhammad Jadid, Dar Qadmas, Damas, 2001.
ABO YOUSUF, Al-Khiraj, Dar al-Amal, 2018.